

المؤسسة الزيتونية والإصلاح

عبد الباسط الغابري
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

المؤسسة الزيتونية والإصلاح*

* قدمت هذه الورقة في ندوة "المؤسسة الدينية في الإسلام.. أي دور؟"، التي انعقدت في تونس العاصمة بتاريخ 29 و 30 نوفمبر 2014

الملخص:

يقتضي الحديث عن المؤسسة الزيتونية وتقييم الدور الذي يمكن أن تضطلع به تأسيساً معرفياً نقطة ارتكازه قراءة تاريخية واعية منذ محاولات الإصلاح الأولى إلى يومنا هذا. فقد عرفت الزيتون محاولات إصلاحية متلاحقة منذ سنة 1898 تاريخ انعقاد لجنة الإصلاح الأولى لمناقشة المقترحات التي قدمها لويس ماشويل Louis Machouel إلى سنة 1950 تاريخ تأسيس لجنة صوت الطالب الزيتوني...

وإذا كان مشروع توحيد التعليم التونسي سنة 1958 الذي صاغه المتفقد الفرنسي جان دوبياس Jean Debiesse، ثم بعث كلية الشريعة في الستينات فجامعة الزيتون في التسعينات قد تضمّن رغبة في بعث مؤسسات عصرية فإنّ الأحداث اللاحقة لا سيما بعد ما يُسمّى بـ "الربيع العربي" قد كشفت هشاشة ذلك التصوّر وسطحيته... ويقتضي تفعيل دور المؤسسة الزيتونية التساؤل من جديد حول الوظائف التي يمكن أن تضطلع بها في هذا العصر، وإعادة قراءة تاريخ السياسة الثقافية التونسية والعربية والمؤسسة الزيتونية خاصة للتعلّم من الأخطاء، والشروع في إصلاح ديني يكون مدخلاً لتنوير فلسفي يُفضي إلى إصلاح ثقافي شامل.

تمهيد:

لئن كان من المنتظر أن تفضي مستجدات "الربيع العربي" وتدايعاته إلى مراجعة بعض المسلمات والخيارات مثلما تقتضيه "أزمة التحولات الكبرى" فإنه ما عنّ بخلد جلّ الملاحظين والدارسين أن تنحرف تلك المراجعات عن وظائفها وآلياتها إلى تجاذب سياسي وأيديولوجي غُيِّب فيه تغييباً متعمداً المقاربات المعرفية الجادة والتاريخية الرصينة. وتعدّ إعادة فتح جامع الزيتونة وبعض فروع له لتدريس العلوم الدينية والشرعية دون إعداد مسبق وتخطيط من المسائل التي كشفت ضعف الرؤية الاستراتيجية وارتجالية مواقف عدد غير قليل من القوى الاجتماعية والسياسية التي تعنزم قيادة هذه المرحلة الحاسمة وتوجيهها. إذ لم تأخذ بنظر الاعتبار دروس الماضي القريب والبعيد في ما يتعلّق بضرورة الاحتكام إلى حلول مدروسة بعمق وفق مقاربة تقدّم فيها المعالجة المعرفية على ما سواها بتنزيل القضية في مختلف سياقاتها السوسيو-ثقافية والتاريخية وأبعادها الاستراتيجية.

يتنزّل البحث في تاريخية إصلاح المؤسسة الزيتونية ضمن المحاولات الساعية إلى تدارك هنات القراءات الانطباعية التبسيطية سواء أكانت في إطار التبجيل أم التقليل. وذلك بالاستناد إلى منهج تاريخي وسوسيولوجي يبحث في مختلف العوامل المادية والفكرية التي أثّرت في تحولات المؤسسة الزيتونية منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم. وأبرز الفاعلين الاجتماعيين المؤثرين في مسيرتها الإصلاحية، وهو ما يساعد على تقييم مدى قدرة المؤسسة الزيتونية اليوم على استعادة فعاليتها وحيويتها، بل الحاجة إليها أصلاً.

1- واقع المؤسسة الزيتونية من منتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم

إذا كانت التصورات التقليدية قد دأبت على النظر إلى المؤسسة الزيتونية "وحدة متجانسة" يقترن فيها الجانب الشعائري من صلوات وإمامة بالجانب التربوي المرتبط بالعلوم الدينية ومدارس الطلبة والشيوخ المدرّسين¹، فإنّ تناولنا للمؤسسة الزيتونية سيقترص على الجانب التربوي بصفة خاصة، ليس لعدم اتساع المقام وإنّما لأهمية ذلك الجانب باعتباره "قطب الرحى" الذي دارت حوله مختلف المواقف و"العنصر المهيمن" على تفكير النخبة التونسية منذ أواخر القرن التاسع عشر ميلادياً. وبهذا الاعتبار فإنّ اختزال المؤسسة الزيتونية في

¹ - نشير - على سبيل الذكر - إلى موقف محمد بن الخوجة في كتابه "تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد" الذي تحدّث فيه عن جميع مرفقات المؤسسة الزيتونية من مرافق شعائرية مثل الجوامع، ومرافق تربوية مثل مدارس طلبية العلم ومعاهد التعليم الزيتوني ولجان إصلاحه... راجع العنوان السابق، تحقيق حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 423.

بعدها التربوي كفيلاً بكشف أنظمة التفكير بمساراتها وتوجهاتها المختلفة والعوامل المضمرة والصريحة المتحكمة فيها، إضافة إلى كونه يجتنب التعميم المخلّ بحسن التقييم².

ارتبط واقع المؤسسة الزيتونية بالوضع العامة للبلاد التونسية والعالم العربي والإسلامي عامة التي شهدت جموداً فكرياً وتكلساً ثقافياً منذ أواخر القرن الخامس للهجرة/ العاشر ميلادياً باستثناء التقليد وخلق باب الاجتهاد وهيمنة الشروح والحواشي. لكن لم يبرز عمق الأزمة وحدتها إلا في مشارف العصر الحديث حين حاصرت الأساطيل الأوروبية "ديار الإسلام" منذ حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798 واحتلال الجزائر سنة 1830.

يمكن تاريخياً ضبط الوعي بعجز المؤسسة الزيتونية عن مواصلة الاضطلاع بالدور المحوري الذي كانت تقوم به طيلة قرون -من توفير نخبة فكرية من "علماء" و"أهل حلّ وعقد" و"قضاة" و"فقهاء" و"كتاب رسائل ودواوين" و"بطانة ووزراء مثلوا البنية العميقة لمختلف الدول المتعاقبة على سدة الحكم بتونس - منذ رحلة المشير الأول أحمد باي الأول إلى فرنسا سنة 1846 واكتشافه البون الشاسع بين الحضارة الغربية والحضارة العربية³. فلئن استأثر التحديث العسكري باهتمام هذا الباي، فإنه لم يغفل أيضاً الجانب التعليمي الذي برز في تأسيسه للمدرسة الحربية بباردو سنة 1838م. يعدّ تأسيس تلك المدرسة البيان الرسمي الأول الذي يشهر فيه عجز واحدة من أهم المؤسسات التقليدية عن مسايرة التحوّلات الحضارية وتلبية حاجيات المجتمع والدولة في واقع متسارع التغيّر. وقد تدعّم ذلك الحدث بحدث ثانٍ يتعلّق بتأسيس المدرسة الصادقية بأمر عليّ صادر عن محمد الصادق باي سنة 1291هـ/1874م وبتوجيه شخصي من الوزير الأكبر خير الدين التونسي [1820-1890]⁴. تميّز هذا الإجراء باندرجاه ضمن ما يمكن أن نصلّح عليه بـ "السياسة التربوية" الشاملة لأبي النهضة التونسية خير الدين لوعيه العميق بأهمية الإصلاح التربوي والتعليمي، إذ بالتوازي مع تأسيس المدرسة الصادقية تمّ إصدار أمر عليّ آخر متعلّق بجامعة الزيتونة سنة 1292هـ/1875م⁵.

يكتسي ذلك التزامن عدّة دلالات أبرزها الإحساس بأنّ عملية إصلاح التعليم الزيتوني مهما بلغت متانتها لا يمكن أن تعيد لتلك المؤسسة صيتها الذي كانت عليه طيلة قرون سواء لتنوّع الصعوبات وحدة المعرقات

² - وهو ما قام به محمود عبد المولى في أطروحة "الجامعة الزيتونية والمجتمع التونسي" (بالفرنسية). راجع: 1° - Abdel Moula (Mahmoud): Université Zaytounienne et la société tunisienne, Tunis, le centre national de la recherche scientifique, 1971. P240.

³ - عن هذه الرحلة وتفصيلها راجع: أحمد ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق أحمد الطويلي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1989، الج 4، ص ص 111-122.

⁴ - أحمد عبد السلام: المدرسة الصادقية والصادقيون، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1994، ص 10.

⁵ - مجموع تراثيب جامع الزيتونة وملحقاتها أدام الله عمرانه، المطبعة التونسية 1327هـ، ص 8.

داخل تلك المؤسسة نفسها مثل تجذّر سطوة رموز المحافظة أو بفعل عوامل خارجيّة مثل تعارض تأسيس تعليم عربي إسلامي عصري مع السياسة الثقافيّة الاستعماريّة.

يبدو واقع المؤسسة الداخلي عنصرًا حاسمًا في صياغة مختلف المواقف وتشكّلها، إذ الإجماع حاصل حول رداءة ذلك الواقع الذي شبّهه أحد الباحثين بـ "المنفى" Ghetto الاجتماعي⁶ لأسباب متعدّدة منها التزايد المستمرّ لعدد الطلبة، إذ تطوّر العدد من ستمائة طالب سنة 1881⁷، ثم ثمانمائة طالب سنة 1910⁸، ثم ثلاثة آلاف ومائتي طالب سنة 1938⁹ إلى أربعة عشر ألف طالب بداية خمسينات القرن الماضي¹⁰. لم يكن تزايد عدد الطلبة مؤشّرًا على جودة التعليم الزيتوني ونجاحته في توظيف خريجه، وإنّما وشى بعمق أزمة المجتمع التونسي بثقافته التقليديّة التي يسعى للاحتماء بها في ظلّ واقع قاس ما فتى يزداد قساوة.

لقد اعتبر بعض الزيتونيين أنّ معضلة الإصلاح الزيتوني "مشكلة المشاكل" و"عقدة العقد"¹¹. ولكي نفهم أسباب هذا الوصف الذي يبدو مبالغًا فيه لمن يجهل حالة المؤسسة الزيتونيّة من سنة 1840 إلى سنة 1956م يستحسن تناول أوضاعها التي استدعت تفكيرًا في إصلاحها مبوّبة في شكل محاور تختزلها. تعدّ البرامج والمواد والمناهج الدراسيّة والمدرسون والمرافق الإداريّة وملحقاتها من مدارس سكنى الطلبة والآفاق التشغيليّة للمتخرّجين أبرز المحاور التي يمكن في ضوئها القيام بقراءة موضوعيّة لواقع تلك المؤسسة¹².

أ- برامج التدريس ومواده: تكاد مواد التدريس وبرامجه تقتصر على تحفيظ القرآن الكريم أو بعض أجزائه مع ما تيسّر من قواعد النحو والصرف¹³. وقد فصلّ محمد بن الخوجة [1869-1942] في كتابه "تاريخ معالم التوحيد" مواد تلك البرامج إلى أواخر ثلاثينات القرن الماضي¹⁴، ثم توسّع آخرون في ذلك منهم محمد

⁶- Abdessamad (Hichem): - la résidence face à la question de la réforme de l'enseignement zaytounien (1930-1931), les mouvements politiques et sociaux dans la Tunisie des années 1930 acte du 3ème séminaire sur l'histoire du mouvement national (17, 18 et 19 Mai 1985), sidi Bou Said, Tunis, publication scientifique tunisienne, 1987.P802.

⁷- مختار العياشي: البيئة الزيتونيّة (1910-1945)، تعريب حمادي الساحلي، ط1، دار التركي للنشر، تونس، 1990، ص 90

⁸- Khairallah (Chadly): - le mouvement révolutionnaire tunisien (notes et documents), tome 3, Tunis, Imprimerie Marc Corrol, Juillet 1938, P 23.

⁹- Kraim (Mustapha): - l'université de la Zitouna dans les années trente, revue tunisienne des sciences sociales, N° 8/91, année 1987, publication du C.E.R.E.S, université de Tunis, P51.

¹⁰- A (Louis): - La jeunesse tunisienne et les études traditionnelles, I.B.L.A, 3^{ème} trimestre, 1956, P 137.

¹¹- انظر محمد الصالح المهدي: لائحة في إصلاح التعليم الزيتوني بتونس، ط1، مطبعة الاتحاد، تونس، 1929، ص 1

¹²- لقد تحدّثنا بتفصيل أكبر عن تلك الوضعية بكتابنا صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافيّة سياسيّة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2011، ص ص 80-96

¹³- Machuel (Louis): - L'enseignement musulman en Tunisie, revue tunisienne de l'institut de Carthage, N° 16, Octobre 1897, P 358.

¹⁴- تاريخ معالم التوحيد، م س، ص ص 94-95

فريد غازي [1929-1962]. وهي في جملتها لا تخرج عن المواد التاية: تفسير القرآن- الحديث النبوي- السيرة النبوية- علم الكلام- علم القراءات- علم التجويد- علم المصطلح- أصول الفقه- الفقه- أحكام الميراث- التصوف- الأخلاق- النحو- الصرف- البلاغة- الإنشاء- الإملاء والخط- العروض- الآداب- التاريخ- الجغرافيا- علم التوقيت- المنطق- الحساب- علم الهيئة- علم الفلك¹⁵...

إذا كانت هذه المواد متعلقة أساساً بفترة معينة: فترة العشرينات التي التحق فيها أبو القاسم

الشابي بالزيتونة بين سنوات 1920 و 1928 تحديداً¹⁶ فإن نسبة التغيير فيها تظل ضعيفة من عقد إلى آخر، على الرغم من تنالي نضالات أجيال متعاقبة من الطلبة الزيتونيين للالتحاق بركب المدنية والتمدن.

تفانم النماذج المدروسة في تلك المواد من حجم الإخلالات وخطورتها في مستوى تطوير المكتسبات المعرفية واللغوية للطلبة، إذ يتم الاكتفاء بتدريس نماذج تقليدية من رواسب عهود الانغلاق والجمود. ففي علم الكلام يتم تدريس الوسطة للسوسى، وفي أصول الفقه تدرّس العاصمية، وفي الفقه يدرّس التفازاني، وفي البلاغة يقع تدريس سعد الدين التفازاني¹⁷. وقد اصطلح طلبة الخمسينات على تسمية هذه الظاهرة بظاهرة "الكتاب المطروق"، بما أنه يتم تدريس الكتاب الواحد أكثر من عشرين سنة إلى حدّ أصبحت فيه سنوات الدراسة تُعرف بأسماء الكتب فيقال: "سيدي خالد عوض السنة الأولى والقطر مكان السنة الثانية والأشموني بدل السنة الخامسة (...). إنه الكتاب المطروق الذي أساس قياده الشيخ المدرّس بعد أن رافقه في سفره الطويل طالباً ومنظراً ثم مدرّساً"¹⁸.

يعني ذلك غياب أو تغييب النماذج التراثية ذات الومضات الإنسانية المستنيرة في الدائرة الثقافية الإسلامية وفي تلك المواد والعلوم تحديداً، أمثال النظام والعلاف وابن المعتز وقدامة ابن جعفر وأبي هلال العسكري¹⁹ ... وما يتضمّن كلّ نفس تحرّري وتطوّري من الممكن انبثاقه من رحم ذلك المدار التقليدي نفسه.

¹⁵- Ghazi (Med Ferid): - le milieu Zeitounien de 1920 à 1933, les cahiers de Tunis, N° 28, 7 année, 4 trimestre 1958, P113.

¹⁶- عبد الباسط الغابري: أبو القاسم الشابي طالباً زيتونياً، مجلة الحياة الثقافية، ع 237، جانفي 2013، ص 84

¹⁷- Ghazi (Med Ferid): - le milieu Zeitounien..., op.cit, P 444- 457.

¹⁸- ع.س: الكتاب المطروق، جريدة صوت الطالب الزيتوني، ع 15، 15 ديسمبر 1950، ص 2

¹⁹- للاطلاع على برامج التعليم الزيتوني مفصلة راجع:

Al Muchrif: - les réformes de l'enseignement Zeitounien, R.E.I, 1930 , P 449- 515.

ولئن كان وجود بعض المواد العلمية أو ما يسميه الزيتونيون بـ "العلوم العقلية" يبعث على التشكيك في موضوعية ذلك الحكم الذي أصدرناه، فإنه ينبغي الانتباه إلى أنّ تلك العلوم لا تدرس لذاتها، وإنما بما هي وسائل لعلوم الدين والعربية. فالحساب يعدّ متمماً للفرائض، والمنطق جزء من أصول الفقه لمعرفة قواعد الاستشهاد والاستنباط والقياس، والشيء نفسه بالنسبة إلى علم الفلك الذي تقتضيه بعض العبادات والفروض الدينية²⁰.

ب- المناهج الدراسية: ترتبط المناهج غالباً بمواضيعها، فكأما كانت المواضيع جيدة كان المنهج سليماً والعكس تماماً صحيح. فهناك نوع من العلاقة الجدلية بينهما. وفي هذا السياق يمكن استقراء المنهج المعتمد في التعليم الزيتوني من خلال ما ذكر في باب المواد والبرامج الدراسية. إذ هو منهج "مدرسي" يقوم على الحفظ والتلقين، وقد أشار محمد الفاضل ابن عاشور [1970-1909] في تقرير له حول التعليم الزيتوني خلال شهر أوت 1931 إلى هذا الإشكال، منتهياً إلى الإقرار بأنّ "التدريس يجري على طريقة الإلقاء المحض، مجردة من كلّ عمل تطبيقي أو استنتاجي من جهة التلميذ، فتتعطل كافة مواهبه العلمية، ولا يتمرن فكره أبداً على الاستنتاج العلمي وحرية النقد والابتكار. فأسلوب التعليم هو نفسه لا يتغير من المرحلة الابتدائية إلى نهاية المرتبة العالية إلا بالتوسع في حشو المسائل والمناقشات اللفظية التي يسمع التلميذ في بادئ أمره دويهاً ولا يفهم المراد، فيتولد في نفسه أحد أمرين: إمّا اليأس من فهم العلم، أو القناعة بما لا يفهم والاكتفاء بترديد ما يطنّ بأذنه أو يقع تحت بصره"²¹.

إذا كان هذا الوصف الدقيق لطرق التدريس وآثارها بالزيتونة يكشف حجم التوقع والانغلاق المسيطر على قطاع واسع من هذه المؤسسة الحيوية بعد نصف قرن من انتصاب الحماية الفرنسية وتوالي عدّة محاولات إصلاحية داخلية وخارجية، فإنه يدين "العقلية" المحافظة المتحالفة عملياً مع السياسة الثقافية الاستعمارية باعتبار النقائهما في الغاية نفسها تقريباً والمتمثلة في إبقاء الحال على ما كان وفق استراتيجية "التآكل الذاتي" بوعي كامل من السلطة الاستعمارية وانعدام بعد استشراقي وحسن نقدي بالنسبة إلى الأرسطراطية الزيتونية المحافظة.

²⁰- الطاهر الحداد: التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981، ص 37

²¹- محمد الفاضل ابن عاشور: تقرير حول نظام التعليم الإسلامي بتونس والمطالبة بإصلاحه (أوت 1931)، المجلة الصادقية، ع 19، جوان 2000، ص

ج- النظم الإدارية: أشرفت على تنظيم التعليم الزيتوني مؤسسة النظارة العلمية تبعاً للأمر العلي الصادر عن المشير الأوّل أحمد باي الأوّل يوم 1 نوفمبر 1842 المعروف بـ "المعلّقة"²². تضمّ تلك النظارة أربعة نظار: اثنان للتفقد واثنان ممثّان للحكومة وقيمين وكتبيين وثلاثين أستاذًا للدرجة الأولى موزّعين بالتساوي بين المذهبيين المالكي والحنفي، وثلاثة عشر أستاذًا من الدرجة الثانية (سبعة مالكيّة وستة حنفيّة) وأواخر القرن التاسع عشر²³. بيد أنّ مؤسسة النظارة، وبحكمّ عديد العوامل منها النزعة الأرستقراطية المشار إليها آنفًا والتجاذب المذهبي والاستماتة في الدفاع عن المصالح الذاتية وتزايد عدد الطلبة الأفريقيين خاصة وتراجع أقرانهم من "البلديّة" الذين وعوا مبكرًا تراجع قيمة التعليم الزيتوني في السلم الوظيفي فخيروا التوجّه للتعليم العصري، أضحت عاجزة عن تأدية وظيفتها الموكولة إليها لا سيّما في ظلّ تهاون النظار وتقاعسهم عن أداء مهامهم²⁴. لذلك تمّ حلّها سنة 1932 وتعويضها بنظام إداري جديد رئيسه الشيخ المدير، وقد كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور [1879-1973] المعروف بنزعتة الإصلاحية أوّل شيخ مدير²⁵. ولئن قام الشيخ ابن عاشور بمحاولة إعادة هيكلة الجامعة الزيتونية وتوحيد برامج جميع فروعها، منتقلًا بنفسه إلى عدّة فروع داخلية، وجعل الموادّ العصريّة موادًا أساسية وتطور المناهج التربويّة وتوحيد النماذج المدروسة²⁶، فإنّ عدم استناد تلك الجهود الإصلاحية الفردية الجبارة إلى رؤية إصلاحية عميقة تبحث في الوظائف التي يمكن أن يضطلع بها التعليم الزيتوني زمن الحداثة أكثر من مجرد الموازنة بين المثل الدينية والمثل الحديثة من جهة، وانعدام سياسة تربويّة وطنيّة تسندها إرادة حقيقية في تعصير التعليم الزيتوني، إضافة إلى تقاطع تلك المحاولات بأبعاد سياسيّة²⁷ متّصلة بخصوصيّة تلك الظرفيّة التاريخية حكمت على جهوده بالفشل.

د- مدارس سكنى الطلبة: لئن يبدو هذا المحور هامشيًا من الناحية الأولى في تقييم مدى صلوحية المؤسسة الزيتونية وقابليتها للاستمرار التاريخي فإنّها هامة من الناحية الوظيفية العملية باعتبار أنّ تركيز الطلبة على الدراسة رهين توفير راحتهم البدنيّة والنفسية في مرافق إقامتهم للمراجعة والإعداد الجيد خارج حلقات الدروس الرسميّة. لذا نجد أنّ جلّ التحركات الطلابية لم تغفل هذه النقطة فخصّصت لها حيزًا هامًا في

²²- راجع مجموع تراتيب جامع الزيتونة، م س، ص 2

²³- حسب إفادة لويس ماشويل في مقاله المنشور سنة 1897 حول التعليم الإسلامي بتونس، م س، ص 396

²⁴- محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقریب، الشركة التونسية للتوزيع، 1967، ص 118

²⁵- الغابري: صوت الطالب الزيتوني...، م س، ص 184 الهامش رقم 3

²⁶- عمّار محمد التهامي: إصلاح التعليم بالجامع المعمور وخطاب شيخه المبرور الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة الإرادة، 1945، ص 5-16

²⁷- يمكن الإشارة إلى مسألة التجنيس والجدل الذي أثير حولها في الفترة الأولى من إدارة ابن عاشور سنة 1933، ثم مسألة الحكومة التفاوضية التي شارك فيها الحزب الدستوري الجديد بقيادة أمينه العام صالح بن يوسف سنة 1950، إذ اتهم الدستوريون ابن عاشور بأنّه يحرك الطلبة من وراء ستار لإفشال تجربة حزبهم التفاوضية، وهو ما يعني في نظرهم تحالفه الموضوعي مع غلاة الاستعماريين خلال الفترة الثانية من إدارته التي استهلها سنة 1945

مطالبها وكتابتها من ذلك أنّ الطاهر الحدّاد نقدًا مستفيضًا أبرز فيه الحالة السيئة التي كانت عليها تلك المدارس ممّا يؤثّر سلبيًا حتّى في صحّة المقيمين بها²⁸.

هـ- الآفاق التشغيلية لخريجي الزيتونة: لقد كان خريجو الزيتونة إلى حدّ أواخر القرن التاسع عشر يجدون حظّهم في عديد الوظائف المتّصلة بنمط مجتمع تقليدي محافظ، على الرغم من تدني مستوى جِلّ الخريجين حتّى في اختصاصاتهم الدينيّة والأدبيّة. إذ يشير محمد الفاضل ابن عاشور في تقريره المذكور سابقًا إلى أنّ: "الزيتوني متضلّع في العلوم التي يدرسها، لكنّه نحوي لا يقدر على الإعراب، بليغ لا يجيد تحرير مكتوب، صرفيّ لا يظفر بالمصدر القياسي للفعل الذي يتكلّم به، مع قصوره في العلوم الرياضيّة وضعف معارفه الأدبيّة، حاشا أفرادًا كانوا نوابغ ذلك العصر"²⁹. لكن مع تغلغل تطبيقات الحداثة الغربيّة بالبلاد التونسيّة تضاءلت فرص تشغيلهم حتّى بالنسبة إلى أبرز المهن المتّصلة باختصاصهم مثل مهنة العدول التي صدر فيها مرسوم أواخر سنة 1928 يفسح فيها المجال أمام خريجي المعاهد العربيّة-الفرنسيّة ممّا يقلّل فرص الزيتونيين باعتبار أنّ ذلك القانون يشترط إتقان اللّغة الفرنسيّة³⁰. لذا تشير عديد المصادر إلى ارتفاع نسبة البطالة بين الزيتونيين، وهو ما يفسّر إقامة الطلبة القدامى طيلة عدّة سنوات بمدارس سكنى الطلبة بعد تخرّجهم سواء لاستكمال دراسة شهادة الحقوق مثلما كان صنيع الشابي والحدّاد، أو لمزاولة بعض المهن الهامشيّة مثل قراءة القرآن والأختام في الأعياد والمآتم وغير ذلك من المناسبات بالنسبة إلى بعض الطلبة الآخرين. وقد بلغت نسبة بطالة حملة الشهادات الزيتونيّة 80% خلال الثلاثينات³¹. لذلك عندما صدر قانون العدول جُوبه برّدّة فعل طالبيّة قويّة في شكل إضراب مطوّل امتدّ من يوم 14 ديسمبر 1928 إلى منتصف نوفمبر 1930 بصورة متقطّعة أحيانًا³². ولم تكن العوامل المذكورة أنفًا وحدها المتسبّبة في محدوديّة فرص العمل، بل إنّ "الصراع" البلدي/الآفاقي والتنافس بين العائلات الأرستقراطيّة الزيتونيّة التي توارثت النفوذ داخل الزيتونة من الأسباب المفضية إلى ذلك الوضع. إذ يتمّ أحيانًا تسريب الامتحانات المفضية للظفر بخطة التدريس بالجامع الأعظم لبعض الطلبة المحظوظين من أبناء العائلات النافذة، كما قد يتمّ إلغاء الامتحان أصلًا إن لم يكن لدى تلك العائلات مترشّحون لتلك الوظائف³³.

²⁸- الطاهر الحدّاد: التعليم الإسلامي...، م س، 34

²⁹- ابن عاشور: تقرير حول التعليم الزيتوني...، م س، ص 14

³⁰- Kraim (Mustapha): - l'université de la Zitouna..., op.cit. P56.

³¹- op.cit. P53.

³²- op.cit. PP 56-61.

³³- الغابري: صوت الطالب...، م س، ص 83

ي- الأساتذة الشيوخ: يعتبر دور المدرّسين محورياً في جميع الأنظمة التعليمية، إذ هم الملاذ الأخير الذي يستطيع تعديل ذلك النظام وإنقاذه مهما كانت سلبية بقيّة العوامل والظروف. ولئن عرف جامع الزيتونة بعض الشيوخ المستنيرين أمثال الشيخ سالم بوحاجب وابني عاشور فإنّ أغلبية الشيوخ ظلّوا مناوئين لكلّ نفس تجديدي، معتقدين أنّ إبقاء الحال على ما هي عليه كفيل بالحفاظ على صفاء العقيدة من التشوّحات الوافدة لتحسين الزيتونة من آفات التغريب المتزايدة. لذا فقد ناهضت تلك الفئة جهود التقنين التربوي سواء بالالتزام بأوقات معيّنة في التدريس أو بنماذج محدّدة في تدريس المواد المكلف بها. فهم "لايحفلون بالقوانين، ويرون أنّ من عزة العلم نبذ الضبط وعدم الالتزام بأوقات معيّنة"³⁴.

بيد أنّ تعنّت بعض الأساتذة الشيوخ وتزمتهم لا يمكن تفسيره بأسباب ذهنيّة فقط وإنّما لا بدّ من استحضار المقاربة "السوسولوجية"، إذ لم يكن التدريس عملهم الوحيد باعتبار محدودية الرواتب المادية. لذلك يمارسون مهناً أخرى موازية تمكّنهم من توفير متطلّبات الحياة التي ما انفكت تزداد تعقيداً بالنسبة إليهم منذ دخول الاستعمار المباشر ومجاورتهم للجاليات الأوروبيّة، وما يتمخّض عن ذلك الجوار من آثار نفسيّة واجتماعيّة.

لا ينفصل وضع مباشرة الدروس عن الوضع العام للمؤسسة، إذ نبّه لويس ماشويل Louis Machouel [1908-1848] منذ وقت مبكّر إلى الحالة السيئة للمدرّسين الزيتونيين أثناء أدائهم مهمّتهم، فهم يجلسون مع طلبتهم على الحصير وما شابهه من زرابي وغيرها³⁵. كما لا يعتمدون إلّا على الأسلوب الشفوي في التدريس بقراءة ألفاظ وعبارات أثناء الدرس ودعوة التلاميذ إلى تكرارها وترديدها ممّا يتسبّب في عجز التلميذ عن تحرير حتّى رسالة³⁶.

قمين بنا الإشارة إلى أنّ جملة المحاور التي أشرنا إليها تعدّ السمات الغالبة على المؤسسة الزيتونيّة منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى سنة 1958 تاريخ توحيد التعليم التونسي ضمن مشروع المتفدّ الفرنسي جان دوبياس³⁷ Jean Debiesse ودمج السنة الأولى من التعليم الزيتوني ضمن مسار التعليم العام³⁸. على الرغم من أنّ التعليم الزيتوني شهد محاولات جدّية رائدة في السنوات الأخيرة من مسيرته ضمن ما يُعرف بالشعبة

³⁴- ابن عاشور: أليس الصبح بقريب، م س، ص 15 (بالتصرّف).

³⁵- Machuel (Louis): - L'enseignement musulman..., op.cit, P 395.

³⁶- Ibid.

³⁷- Debiesse (Jean): Projet de réforme de l'enseignement en Tunisie, rapport donné en Janvier 1958 ; voir la Bibliothèque de I.B.L.A. , cote N T 55/21 , p1

³⁸- لطفي حجّي: بورقيبة والإسلام الزعامة والإمامة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004، ص 81

العصريّة الزيتونيّة التي تمّت فيها تجربة تعريب بعض المصطلحات العلميّة تعريباً متدرّجاً وإدخال العلوم العصريّة واللغات ضمن المواد الأساسيّة³⁹. ذلك أنّ التجاذب السياسي الحاد الذي كانت تشهده تونس ضمن ما يعرف بـ "الصراع البورقيبي/اليوسفي"، ورغبة السلطة البورقيبيّة في إحكام قبضتها على مفاصل المجتمع والدولة والثقافة لم تمنح للمؤسسة الزيتونيّة فرصة الأمل الأخير التي كان من الممكن أن تُسهم في صياغة مشروع تربوي عربي إسلامي متفتح على القيم الكونيّة من الممكن إشعاعه على كامل العالم الإسلامي. فلا ينبغي إغفال حقيقة أنّ ذلك التعليم التقليدي قد كان الدافع القادح لبروز بعض الأعلام المبدعين الذين لم تتجب تونس كثيراً منهم في مجالاتهم إلى اليوم مثل ابن خلدون قديماً وابني عاشور والشابي [1909-1934] والحداد [1899-1935] والثعالبي [1876-1944] حديثاً. إضافة إلى ذلك من المعلوم أنّ التعليم الزيتوني قد تواصل بعد الاستقلال بصيغ أخرى لا تخلو من صرامة ضمن الجمعيات القرآنيّة وبعض الكنائس وكنيسة الشريعة وأصول الدين التي كان محمد الفاضل ابن عاشور أوّل عميد لها، ثم جامعة الزيتونة بداية التسعينيات وإلى اليوم ضمن ثلاث مؤسسات جامعيّة ممثّلة في المعهد الأعلى لأصول الدين والمعهد العالي للحضارة الإسلاميّة ومركز الدراسات الإسلاميّة، إلا أنّ التحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة ضمن ما يُعرف بـ "الربيع العربي" قد أعادت فتح ملف المؤسسة الزيتونيّة في إطار ما يُسمّى بالتعليم الزيتوني "الأصلي" بمباشرة تقديم الدروس في العلوم الدينيّة والشرعيّة دون الاحتكام إلى مقاربة استراتيجيّة. وهو ما نجم عنه تصادم بين أطراف عدّة منها وزارة الشؤون الدينيّة ووزارة التربية وجامعة الزيتونة وما يُسمّى بمشيخة الجامع الأعظم الجديدة وإدارته⁴⁰. ولئن كانت مناقشة هذه المسألة ليست في هذا السياق بضرورة فإنّ الإشارة إلى المسيرة الإصلاحية الزيتونيّة هامة في سبيل صياغة مقاربة معرفيّة متينة تتأى عن الارتجاليّة والتجاذبات السياسيّة والايديولوجية التي تغري ولا تجدي.

2- المسيرة الإصلاحية في مجال التعليم الزيتوني

لم يمنع تردّي أوضاع التعليم الزيتوني واختلالها من بروز بعض المبادرات الإصلاحية من داخل المؤسسة نفسها ومن خارجها. ولئن يصعب الإحاطة بجميع تلك المحاولات لتعدّدها وامتدادها الزمني الطويل الذي يقارب قرناً من الزمان فإنّه يمكن اختزالها في نوعيّة الفاعلين والجهات المُضطلعة بها، إذ في ضوء هذا المعطى يمكن التمييز بين عدّة مبادرات منها: مبادرات السياسيين والإداريين ومبادرات الشيوخ المدرّسين

³⁹- علي الزيدي: تاريخ الشعب العصرية الزيتونيّة {1951-1965}، ط1، مركز البحوث في علوم المكتبات، تونس، 1986

⁴⁰- سنناقشها ضمنياً في العنصر الثالث من هذا البحث.

ومبادرات الطلبة الزيتونيين القدامى والطلبة المباشرين. وجميع هذه المبادرات جديرة بأن توضع ضمن النضال الثقافي والتربوي في سبيل التقدّم والتحرّر الثقافي.

أ- مبادرات السياسيين والإداريين: تشمل هذه المبادرات محاولات بعض المسؤولين التونسيين والفرنسيين. ويمكن رصد بداية محاولات السلطة السياسيّة التونسيّة مع أحمد باي الأوّل الذي أصدر أمراً عليّاً يُعرف بمعلّقة "الشفاء" بتاريخ 1 نوفمبر 1842⁴¹. وقد كان ذلك الأمر العلي يستهدف تنظيم الدروس وضبط أوقاتها بالجامع الأعظم وإغناء مكتبته وتحسين موارده الماليّة والرواتب المسندة إلى إطاره التربوي⁴². وهو ما يعكس حماس ذلك الباي لتأهيل البلاد عسكرياً وتعليمياً على أمل استعادة زمام المبادرة في ميدان الترقّي والتمدّن.

تظلّ المرحلة الممتدّة بين سنوات 1870 و1878 من أخصب المراحل في تاريخ جهود الإيالة التونسيّة الإصلاحية، وهي الفترة المقترنة ببيروز نجم خير الدين باشا، إذ تمّ إصدار أمر عليّ بتاريخ 27 ديسمبر 1870 ثم أمر ثان بتاريخ 26 ديسمبر 1875 بالتزامن مع تأسيس المدرسة الصادقية، فقد تضمّن ذلك المرسوم ستّة فصول⁴³ ناظمة للتعليم الزيتوني منها التنصيص على المواد المدروسة وقائمة الكتب المقرّرة وحقوق الطلبة وواجباتهم ومهام النظار والقيمين والكتبيين⁴⁴. وقد صدر قرار تكميلي سنة 1876 تضمّن بعض الإجراءات الإضافية مثل ضبط عدد الأساتذة⁴⁵. لكن جميع تلك المقرّرات لم يُطبّق منها إلاّ النزر القليل⁴⁶.

لئن لم تتوقّف محاولات الإيالة التونسيّة في العهود اللاحقة، فإنّها لم تكن وليدة تفكير سياسي وإرادة في الإصلاح والتغيير مثلما كان الأمر مع المشير الأوّل أحمد باي ومحمد الصادق باي وخير الدين، وإنّما نتيجة تحرّكات الطلبة الزيتونيين الميدانية وضغوطاتهم. وهو ما يتجلّى في الأمر العلي الذي أصدره محمد الناصر باي يوم 16 سبتمبر 1912، وفي توالي لجان إصلاح التعليم الزيتوني التي بلغ عددها خمس لجان من سنة 1897 إلى بداية الخمسينات⁴⁷.

⁴¹ - عبد الجليل التميمي: محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، 21 و22 أبريل 1981، ص ص 91- 101

⁴² - الحداد: التعليم الإسلامي...، م س، ص ص 49- 51

⁴³ - Abdel Moula (Mahmoud): - 1° Université Zaytounienne..., op.cit. P 83.

⁴⁴ - Ibid.

⁴⁵ - Ibid.

⁴⁶ - Machuel (Louis): - L'enseignement musulman..., op.cit, P 391.

⁴⁷ - للنظر في تركيبها وبعض حيثياتها راجع محمد بن الخوجة: تاريخ معالم التوحيد، م س، ص ص 101- 111. وانظر كذلك مقل التميمي. م س.

تخلّلت جهود الإداريين التونسيين في مضمار إصلاح التعليم الزيتوني محاولات بعض الفرنسيين ويعد لويس ماشويل مدير التعليم العمومي أبرزهم على الإطلاق، إذ كان للرجل رؤية إصلاحية متكاملة. على الرغم من اندراجها ضمن سياسة ثقافية وتربوية ذات أبعاد استعمارية غير خفية. إذ كان الرجل متبنياً ضمنياً للطرح الهيكلي الذي يعتبر تونس امتداداً طبيعياً لأوروبا باعتبارها "إفريقيا الأوروبية"⁴⁸ على حدّ تعبير هيقل بحكم موقعها الاستراتيجي⁴⁹، وهو ما يفرض عليها اختيارات حضارية خاصة أساسها الانفتاح والتفاعل الإيجابي مع المتغيرات التاريخية والتوازنات الدولية. ويبرز المحدّد الثاني لرؤيته الإصلاحية في قيمة المقترحات التي تقدّم بها لتغيير التعليم الزيتوني إبان تلك المرحلة المتقدّمة وفي وضعيّة تاريخية قابلة للمعالجة الجذرية. فمن أبرز تلك المقترحات التي نُوقشت أثناء انعقاد لجنة الإصلاح الأولى سنة 1897 يمكن ذكر:

- ضرورة تخصيص الجامع الأعظم للتعليم فقط.

- النظر في الفنون أو المواد الواجب أن تشتمل عليها برامج كلّ مرتبة من مراتب العلم.

- البحث في المواد الواجب إدراجها في التعليم قبل غيرها مع التأكيد على حتمية التعليم الديني في الجامع وخارجه.

- إمكانية إخضاع الطلبة لامتحان كتابي يكون أحد الدروس المقرّرة موضوعاً له، على أن يقع احتسابه في النتائج النهائية أو أخذه بعين الاعتبار.

- مطالبة كلّ مدرّس بتدريس علم واحد أو اثنين على الأكثر.

- التأمّل في كلّ الوسائل العائدة بالنفع على تدريس التعليم العربي وعلى حال التعليم عامة⁵⁰...

إنّ تأمّل هذه المقترحات في ذاتها يسهّل اكتشاف النفس الإصلاحي الغالب عليها، إذ شملت مختلف النواحي المؤسسة لتعليم زيتوني عصري منسجم مع المستجدّات الحضارية الراهنة في مجالات التربية والتعليم والثقافة باعتبار أنّها تناولت قضية التعليم الزيتوني من زوايا متعدّدة منها ماهو بيداغوجي، وإداري تنظيمي، واستشراقي مستقبلي...

⁴⁸- Machuel (Louis): - L'enseignement Public de la régence de tunis, Imprimerie National, Paris, 1898, PP1-2.

⁴⁹- هيقل: العقل في التاريخ محاضرات في فلسفة التاريخ، المجلد 1، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط2، دار التنوير، بيروت، 2007، ص ص 172-173.

⁵⁰- محمد سليمان: مشروع التعليم عند لويس ماشويل (1883-1906) دراسة نقدية، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمّقة، إشراف كمال عمران، كلية الآداب ببنوبة، السنة الجامعية (2003-2004)، ص 80.

ولئن أجمع جلّ المهتمين بدراسة الزيتونة وقضاياها بقيمة تلك المقترحات⁵¹ إلى حدّ وصفها بـ "الحلم الرومنطقي"⁵² في تأسيس جامعة تعليم ديني عصري تشعّ على كامل العالم الإسلامي، فإنّها جُوبهت برفض قاطع من الشيوخ المحافظين⁵³. الأمر الذي دفع صاحبها إلى مقاطعة الجلسة الثانية لتلك اللجنة، بل تمّ إبعاد الجامع الأعظم عن صلاحياته نهائياً وجعله ملحقاً بالوزارة الكبرى بعد شكايته الشيوخ به إلى وزير الخارجية الفرنسي⁵⁴، وتذمّرهم من تدخله في ما يعدّونه أمراً خاصاً بهم وحدهم بدعوى المحافظة على الإسلام والهويّة من مخاطر التشويه ومكائد المتربّصين!...

وقد أرجع محمد الطاهر ابن عاشور النتيجة السلبية التي انتهت إليها جلسة الإصلاح الأولى إلى النوايا السيئة المتبادلة بين الطرفين، فمن جهة كان ماشويل يسعى إلى بسط نفوذه التام على التعليم العمومي التونسي بإحكام قبضته على آخر ما تبقى خارج سيطرته، وهو يعلم أنّ هذا الهدف لن يتم دون الحدّ من سلطة الشيوخ النافذين، ومن جهة أخرى كان أولئك المحافظون يعتبرون أرستقراطية زيتونية ترى أنّ من حقها وحدها أن تظلل حارسه للدين من الزيغ والبدع والضلال بحكم امتيازات تاريخية ووضعيتها حضارية خاصة، وهذا المبتغى مشروط في وعيهم بإبقاء الحال على ما هي عليه. لكن من المرجح أنّ "تصادم" الطرفين لم يكن مرده مجرد نوايا سيئة متبادلة، بل هو أيضاً انعكاس لتقابل في الرؤى: رؤية حديثة تقابل رؤية تقليدية، إضافة إلى تباين المصالح الظرفية.

ب- تصوّرات الشيوخ المستنيرين: لم ينعدم تماماً الهاجس الإصلاحي لدى بعض الشيوخ المستنيرين، إذ يمكن أن نستشفّ هذا الأمر منذ تاريخ مساندتهم لمشروع خير الدين الإصلاحي الذي أفصح عنه في مقدّمته الشهيرة "أقوم المسالك"، ثم أثناء مباشرته لخطواته العملية بتأسيس المدرسة الصادقية وانضمامهم لإطارها التربوي أمثال الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد العزيز جعيط والشيخ محمد بن القاضي وابني عاشور الطاهر والفاضل⁵⁵.

⁵¹- يمكن أن نذكر على سبيل الذكر:

Ayachi (Mokhtar): - La politique coloniale et la question zitounienne dans les années 1930, actes du 3ème séminaire sur l'histoire du mouvement national (27, 17et 19 mai 1985), Sidi Bou Said, publication scientifique tunisienne, 1987, p823.

- Kraim (Mustapha): l'université de la Zitouna..., op.cit. P46. - Abdessamad (Hichem): - La résidence face à la question...op.cit , p 816.

⁵²- Ibid.

⁵³- أليس الصبح يقرب، م س، ص 81

⁵⁴- Ayachi (Mokhtar): - La politique coloniale ..., op.cit, P 8424.

⁵⁵- محمد العزيز ابن عاشور: جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سيراس للنشر، 1991، ص 131

لئن لم تتواصل مساهمة الشيوخ الزيتونيين في المسيرة الإصلاحية على شاکلة طلبتهم فإنّ العمل الإصلاحي لم يقطع سواء من خلال أصداء جلسات لجان التعليم الزيتوني المتمثلة في الجدل الدائر بين الشقّين المحافظ والإصلاحي مثلما كان الأمر بالنسبة إلى اللجنة الخامسة المنعقدة سنة 1938، أو من خلال جمع قوى الأصوات الزيتونية المستنيرة بالزيتونة وفروعها في مؤتمر الأساتذة الشيوخ سنة 1944 حين أصبحت الكفة تميل إلى الإصلاحيين على عكس ما كان سائداً قبل الحرب العالمية الثانية⁵⁶. وقد تمحّض عن ذلك المؤتمر تشكيل عشر لجان إصلاحية⁵⁷ لترقية التعليم الزيتوني والمطالبة بعودة الشيخ ابن عاشور إلى المشيخة لتفعيل تصوّراته الإصلاحية التي أعلن عنها في كتابه "أليس الصبح بقريب" الذي ألفه سنة 1907.

لقد كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور يعي جيّداً ارتباط أسباب تأخر التعليم الزيتوني بواقع الثقافة الإسلامية وواقع المسلمين وتخلفهم عن ركب المدنية والتمدّن⁵⁸. على الرغم من أنّه في نهاية المطاف لا يعدو أن يكون سوى شيخ مالكي تقليديّ يؤثر السلامة على المغامرة التي قد تخلّف الندامة. وقد تمثّلت أبرز إصلاحاته منذ رجوعه للمشيخة خلال شهر فيفري 1945 في إدخال بعض العلوم العصرية ضمن المقررات المدرسية بعد أن كانت مجرد علوم تكميلية بتخصيص مناصب دراسية بالمرحلة المتوسطة بالجامع خاصّة بالرياضيات والطبيعات والتاريخ والجغرافيا والفلسفة خلال السنة الدراسية 1946-1947 وتنظيم تعليم ثانوي عصري كامل باللغة العربية ينتهي بالإحراز على شهادة البكالوريا العربية ممّا يسمح للطلبة الزيتونيين باستكمال دراستهم بالجامعات المشرقية⁵⁹...

ج- نضالات الطلبة الزيتونيين: تعتبر تحركات الطلبة الزيتونيين ونضالاتهم العمود الفقري للمسيرة الإصلاحية الزيتونية، إذ حتّى تحركات أساتذتهم خلال مؤتمرهم الأوّل سنة 1944 ما كانت لتتم لولم يجدوا واعزاً نفسياً مستمداً من نضالات طلبتهم. وهي من المفارقات التي تعجّ بها المؤسسة الزيتونية آنذاك. بيد أنّ نضالات الطلبة تتميز بتنوّعها وامتدادها الزمني واستمراريتها ممّا يجعل الإحاطة بجميع تفاصيلها تستدعي بحثاً مستقلاً. لذا فإنّ من الأنسب اختزالها في أهمّ أطوارها الكبرى.

• نضالات سنة 1910: لم يهنا الشيوخ المحافظون كثيراً بانتصارهم على لويس ماشويل أثناء الجلسة الإصلاحية الأولى، إذ لم يمض أكثر من عقد حتّى اندلعت مظاهرات طلابية لم تكن مجرد تقليد لإضراب طلبة

⁵⁶- علي الزيدي: حركة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة منذ نشأتها حتّى لجنة صوت الطالب الزيتوني، المجلة التاريخية المغربية، ع 35-36، ديسمبر 1984، ص 27

⁵⁷- منها لجنة أماكن التعليم ومساكن الطلبة. لجنة الثقافة العامة. لجنة الإشراف على تنظيم التعليم...، م ن، ص 28

⁵⁸- أليس الصبح بقريب، م س، ص 114

⁵⁹- علي الزيدي: حركة إصلاح التعليم...، م س، ص 29

الأزهر⁶⁰ خلال السنة نفسها بقدر ما كانت نتيجة تراكم المسارات الإصلاحية واختمار الأفكار وتفاعلها واستحالة إرجاع حركة التاريخ إلى الوراء لأنّ منطقه التقدّم.

انطلقت تحرّكات الطلبة الزيتونيين يوم 15 مارس 1910 بجملة من المطالب الإصلاحية منها: تنظيم ساعات محدّدة للدروس، وتدرّيس التاريخ والجغرافيا وبقية العلوم العصرية من قبل مختصّين ليتم إدرّاجها ضمن مواد الامتحان، وإجراء الطلبة للامتحانات بعد ثلاث سنوات من الدراسة بدل سبع سنوات وفق النظام المعمول به آنذاك⁶¹...

لم تستجب الحكومة لهذه المطالب على الرغم من معقوليتها، وإنّما أوكلت أمرها إلى لجنة جديدة بقيادة كاتب الحكومة العام⁶² خشية ردّ فعل الشيوخ المحافظين الذين كانوا أغلبية في ذلك الوقت، إذ ذهبوا إلى حدّ إرسال أربعة شيوخ منهم إلى الوزير الأكبر، مهتدين بالاستقالة في صورة الاستجابة لمطالب الطلبة⁶³ لإحساسهم بأنّ باب الإصلاح إن فُتح فلا يمكن إغلاقه أبداً. وهو ما يتعارض مع سقف انتظاراتهم وتوازنات مصالحهم.

كشف تحرّك سنة 1910 أمرين هامين سيتحكّمان في المشهد الثقافي والسياسي التونسي طيلة العقود الموالية: يتعلّق الأمر الأوّل بتجذّر النزعة الإصلاحية لدى التونسيين، فهي ليست مكيدة استعمارية كما خالها الأساتذة الشيوخ المحافظون، وإنّما هي نتيجة تحولات سوسيوثقافية عميقة. يرتبط الأمر الثاني بتلاحم الشبيبة التونسية ونخبها المستنيرة، إذ وجد الطلبة الزيتونيون المقدرّ عددهم بثمانمائة طالب سنة 1910 كلّ الدعم والمساندة من صحيفة "التونسي" التي كان يديرها علي باش حامبة ورفاقه أمثال الصادق الزمرلي وعبد الرزاق الغطاس وعبد العزيز الثعالبي. وقد وصل ذلك الدعم إلى حدّ تخصيص مساحة لهم في تلك الصحيفة لتأنيثها بأفكارهم وتصوّراتهم⁶⁴، إضافة إلى احتضان ساحة المدرسة الصادقية لاحتفالهم الذي أقاموه بنجاح إضرابهم، وقد حضر بعض الزعماء المذكورين آنفاً وتلامذة المدارس الأخرى⁶⁵.

⁶⁰- Ayadi (Taoufik): - Mouvement réformiste et mouvement populaire à Tunis (1906- 1912), publication de l'université de Tunis, 1986, P130.

⁶¹- Khairallah (Chadly): - Le mouvement révolutionnaire, op.cit, PP23- 24.

⁶²- انظر تركيبة هذه اللجنة في المرجع نفسه والصفحة نفسها.

⁶³- Ayadi (Taoufik): - Mouvement réformiste..., op.cit, p133.

⁶⁴- Khairallah (Chadly): - Le mouvement révolutionnaire, op.cit , P25.

⁶⁵- Ibid.

• نضالات العشرينات: ارتبطت أبرز نضالات هذا الجيل مباشرة بقانون العدول الصادر يوم 8 ديسمبر 1928 الذي يتضمّن شروطاً من شأنها تضيق فرص الشغل المحدودة لخريجي الزيتونة من بينها: إجراء مقالة في القوانين الوضعيّة المدنية من مجلة العقود والالتزامات ومجلة المرافعات المدنية، والإجابة الشفوية على أسئلة تهمّ النظام الإداري والعدلي التونسي وتراتب التسيير والتأثير والعمليات الحسابية اللازمة لتحرير معانيها⁶⁶، وإسناد عدد متراوح بين واحد وعشرين للمتقنين للغة الفرنسيّة، وهو ما يعني الحكم بالفشل المسبق على المترشّحين الزيتونيين لتلك المناظرة وفتح مسالك العدول أمام الصادقين للحدّ من توجيههم للتعليم العالي⁶⁷.

أعدت هذه المستجدّات التساؤل حول جدوى التعليم الزيتوني التقليدي. وينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ لويس ماشويل كان قد سبق له التنبيه إلى غياب تدريس القوانين الإدارية التونسية من برامج التعليم الزيتوني منذ سنة 1897⁶⁸.

إذا كان إضراب 14 ديسمبر 1928 الذي استمرّ سنة كاملة لم يفض إلى حلول جذرية عملية، فإنّ لائحة محمد الصالح المهدي⁶⁹ الشهيرة تعدّ أبرز ما أفرزته هذه المرحلة. إذ تضمّنت وصفاً دقيقاً لواقع التعليم الزيتوني مشفوعاً بمقترحات جدية لتطويره. شملت تلك المقترحات إعادة النظر في أسس التعليم الزيتوني وقواعده، فدعا إلى ضرورة أن يقوم التعليم على "الفهم والتطبيق لا الحفظ والاستظهار والتدرّج لا التقسيم الفجائي، والتخصّص بعد ذلك بدل الجمع إلى النهاية"⁷⁰. تتفق هذه القواعد في جوهرها مع المقرّرات البيداغوجية الحديثة التي من أهمّ أهدافها تعزيز ملكة النقد لدى المتعلّمين ليستطيعوا الاضطلاع بأدوار فعلية في مجالات حياتهم المختلفة.

• نضالات الثلاثينات: إذا كان صدور أمر تنظيم التعليم الزيتوني سنة 1933 قد أوحى بإمكانية حدوث تحوّل إيجابي بالمؤسسة الزيتونية باعتباره قد نظّم التعليم في ثلاث مراحل: مرحلة أولى ثانوية تدوم أربع سنوات تنتهي بديبلوم الأهلية، ومرحلة ثانية ثانوية تدوم ثلاث سنوات تنتهي بديبلوم التحصيل الذي عوض دبلوم التطوير، ومرحلة عالية تدوم ثلاث سنوات تنتهي بشهادة العالمية⁷¹، فإنّ هذه الحقبة التاريخية سرعان ما

⁶⁶ - راجع الرائد الرسمي للجمهورية التونسية بتاريخ 8 ديسمبر 1928

⁶⁷ - محمد ضيف الله: الحركة الطلابية التونسية، {1927-1939}، مؤسسة التميمي للبحث العلمي، زغوان/ تونس، 1999. ص 115

⁶⁸ - Machuel (Louis): - L'enseignement musulman..., op.cit, P395.

⁶⁹ - للتعريف بها وبإسهاماتها انظر: محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية بتونس، ط1، الدر التونسية للنشر، 1983، ص ص 187-188

⁷⁰ - المهدي: لائحة في إصلاح التعليم الزيتوني، ص ص 7-22-23

⁷¹ - Kraim (Mustapha): L'université de la Zitouna..., op.cit. P52.

عرفت تداخلاً كبيراً بين السياسي والثقافي بفعل التحوّلات الداخلية والعالمية مثل فتوى التجنيس المنسوبة إلى محمد الطاهر ابن عاشور التي اندلعت على إثرها إضراب أبريل 1933⁷² ممّا دفعه إلى الاستقالة ليتم تعويضه بالشيخ صالح المالقي، ورغبة الحزب الدستوري الجديد في تشديد الضغوط على المقيم العام بيروطن Peyroton. لذلك تمّ استغلال اشتراط مرسوم 14 فيفري 1936 إتيان اللغة الفرنسية بالنسبة إلى القانون الجديد للموظفين لتسييس إضراب الطلبة، وهو ما جعل تحركاتهم تأخذ بعداً وطنياً تجلّى في الشعارات التي تم رفعها مثل "تونس للتونسيين" و"لا بد من برلمان تونسي"... الأمر الذي كلّفهم عقوبات قضائية قاسية من قبل السلطة الاستعمارية التي قرّرت في النهاية تعويض بيروطن بأرمان قيون Armand Guillon ذي الميولات اليسارية والمنتمي إلى حكومة الجبهة الشعبية المناهضة للتوسّع الاستعماري. لقد سمح الانفتاح النسبي والمناخ السياسي الجديد بانعقاد المؤتمر الزيتوني في أكتوبر 1937 الذي اقتصر فيه الحضور على الوجوه الشبابية، ولم يحضر فيه ولو مدرّس واحد⁷³. وجُدّدت فيه المطالبة بإصلاحات جذرية، وتأسست فيه عدّة جمعيات طلابية مثل جمعية الدفاع عن حقوق المتطوّعين والمتحصّلين (جوان 1938)⁷⁴.

• نضالات الأربعينات: لقد انعكست بعض نتائج الحرب العالمية الثانية (1939-1945) إيجابياً على المشهدين الثقافي والسياسي التونسيين، إذ لأوّل مرّة تجمع القوى التونسية على المطالبة بالاستقلال التام في مؤتمر ليلة القدر يوم 22 أوت 1946⁷⁵. وقد أثر هذا الحدث أيضاً في تصوّر الطلبة الزيتونيين لطرق تحركاتهم، فبرزت نزعة إلى توحيد الجمعيات الزيتونية مثل "جامعة الجمعيات الزيتونية" التي ظهرت سنة 1945 وكان محمد البدوي وأحمد الزغل من أعضائها، ولجنة الدفاع عن مطالب الطلبة والشباب الزيتوني التي ظهرت سنة 1947 بقيادة محمد البدوي وعبد الرحمان الهيلة وعبد العزيز بورعوش ومحمد الصغير الشابي⁷⁶. وقد خيّرت تقديم مطالبها إلى السلط المعنية في ثمانية فصول⁷⁷، ولم يكن ذلك التحوّل في طرائق التحرك الطلابي مجرد عفو خاطر بقدر ما كان مؤشراً على تطوّر نوعي في وعي الطلبة الزيتونيين. وهو ما سيثبت

⁷²- op.cit. P25.

⁷³- الزيدي: حركة إصلاح التعليم...، م س، ص 25

⁷⁴- الغابري: صوت الطالب...، م س، ص 112

⁷⁵- ابن عاشور: الحركة الأدبية...، م س، ص 229

⁷⁶- محمد العزيز ابن عاشور: جامع الزيتونة...، م س، ص 144

⁷⁷- الزيدي: حركة إصلاح التعليم...، م س، ص 34

أمره في فترة الخمسينات التي استفادت من نضج العناصر القيادية الطلابية السابقة. وهو ما برز في تشكيل طلابي كبير يوم 19 فيفري 1950 متمثلاً في لجنة صوت الطالب الزيتوني⁷⁸.

• نضالات الخمسينات: تعتبر هذه المرحلة عصارة المراحل النضالية السابقة، إذ فيها تطوّر الكفاح الزيتوني تنظيمياً ومضمونياً. يبرز ذلك في عدّة مستويات مثل طريقة تشكيل لجنة صوت الطالب الزيتوني، حيث تمّ باعتماد طريقة انتخابية محكمة شبيهة بما يحصل في انتخابات المنظّمات العريقة والأحزاب الكبيرة، تبدأ بانتخاب مجلس جهوي في كلّ فرع زيتوني انطلاقاً من مبدأ انتخاب كلّ فصل لنائب له، ثمّ يتمّ تشكيل البرلمان الزيتوني الذي يضمّ أولئك النواب الجهويين، إضافة إلى نائب عن كلّ فصل بالجامع الأعظم. ويعدّ البرلمان الزيتوني الجهة المؤتمنة على انتخاب لجنة مركزية. وهو ما حدث يوم 10 أفريل 1950 حيث تمّ انتخاب ثمانية عشر عضواً ليصبح العدد مقتصرًا في ما بعد على اثني عشر عضواً أو حتّى عشرة في بعض الأحيان، موزّعين على أربع لجان: لجنة المقابلات تضمّ محمد البدوي وحسن البرقاوي، واللجنة الإدارية تتألّف من أحمد عباس وعلي بلقاسم الحامي وعبد العزيز بن القاضي، واللجنة المالية تتكوّن من سالم سعيد وعبد الله العلوي ومحمد المزطوري، واللجنة الدعائية فيها البشير غزال ومصطفى المرزوقي ومحمود بن بوبكر وعمر الحامي⁷⁹.

إذا لم نكن معنيين في هذا السياق بتفصيل نضالاتها المتعدّدة⁸⁰ ممّا لا سبيل إليه في هذا الغرض، فإنّه من الضروري الإشارة إلى برنامجها الثقافي. ذلك أنّه برنامج متكامل اصطلح الخطاب الطالب على تسميته بـ "دستور الزيتونيين الجامع"⁸¹. إذ تضمّن ستة عشر فصلاً استوعبت جميع مشاغل المؤسسة الزيتونية من النواحي البيداغوجية والتربوية والقانونية إلى النواحي الإدارية والتشغيلية⁸². لذلك أجمع الباحثون المهتمّون بتاريخ المؤسسة الزيتونية على قيمتها إلى حدّ تحدّث فيه البعض عن برنامج "إصلاحي متكامل"⁸³ يعبر عن "الوعي الراقي"⁸⁴ الذي بلغه طلبة الجامع بعد سنوات طويلة من النضال المرير لأنّه كان سيفضي إلى تغيير جذري للتعليم الزيتوني، فيبرز تعليم ثانوي عصري يُختتم بالحصول على باكالوريا في العلوم وفي الآداب ممّا

78- محمد ضيف الله: المدرج والكرسي، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2004، ص 150

79- الزيدي: حركة إصلاح التعليم...، م س، ص 77-78. انظر كذلك الغابري: صوت الطالب...، م س، ص 255-262

80- الغابري: صوت الطالب...، م س، ص 322-333

81- دون إمضاء: دستور الزيتونيين الجامع، جريدة صوت الطالب، ع 1، 1 سبتمبر 1950، ص 2

82- الغابري: صوت الطالب...، م س، ص 240-244

83- الزيدي: حركة إصلاح التعليم...، م س، ص 37

84- الطاهر شقرون: الحركة الطلابية التونسية (1945-1956)، مجلة أطروحات، ع 5، 5 أكتوبر 1985، ص 52

يؤهلهم لإكمال دراستهم في الجامعات الشرقية والغربية، كما سيكون خطوة نحو التعريب وبالتالي المحافظة على الشخصية القومية⁸⁵.

بيد أنه لم يكتب لذلك البرنامج التحقق الفعلي ليس فقط لغياب الإرادة السياسية الحقيقية الحريصة على الالتزام بالتعهدات -لا سيما بعد تشكل الحكومة التفاوضية الأولى سنة 1950 برئاسة الوزير الأكبر محمد شنيق وبمشاركة الحزب الدستوري الجديد الذي اعتبر أمينه العام صالح بن يوسف قضية الطلبة الزيتونيين قضية مصيرية قبل أن ينقلب عليهم إلى حدّ الزج ببعض الطلبة في السجن أثناء تظاهرهم سنة 1951 لما شغل وزيراً للعدل، ثم ليعود إليهم من جديد بعد خلافه الشهير مع رئيس حزبه الحبيب بورقيبة جرّاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي سنة 1955⁸⁶، وإنما كذلك بفعل غياب رؤية استراتيجية شاملة تربط واقع المؤسسة الزيتونية بواقع البلاد ومختلف المستجدات الحاصلة، فلو كان للزيتونيين رؤية استراتيجية بيّنة لتجنبوا مختلف التجاذبات السياسية ومنزلقاتها، وربما فكّروا في تشكيل قوة سياسية بمفردهم أو داخل أبرز التشكيلات السياسية السائدة آنذاك ليتسنى لهم إنجاح مشروعهم الثقافي الذي قدّموا التضحيات الجسام لتحقيقه، لكنهم في النهاية اصطدموا بقرار غلق مؤسستهم التعليمية. وهو الأمر الذي لم يتجرأ عليه حتى الاستعمار، وهو طارئ كان منتظراً لذلك لم يثر ردود فعل تذكر سنة 1958⁸⁷.

3- حدود التطلع لتفعيل دور المؤسسة الزيتونية راهناً ومستقبلاً

إذا كان من المجدي أن يُعاد فتح ملفات الماضي في مجرى "الثورات" سواء في إطار المراجعة الفكرية والتاريخية أو القضائية في نطاق ما يُعرف بالعدالة الانتقالية، فإنّ من باب هدر الجهود والطاقات انحراف تلك الآليات عن مقاصدها بفعل التجاذب السياسي والاستقطاب الأيديولوجي. فلئن كان من المنتظر أن يؤدي التساؤل عن أسباب ضعف الخطاب الديني إلى الحديث عن المؤسسة الزيتونية والدور التي يمكن أن تضطلع بها، فإنّه تمّ إجهاض تلك الفكرة وتشويهها فتحول الأمر إلى مساجلات إعلامية وتنازب سياسي في المنابر. إذ تمت إعادة فتح جامع الزيتونة لتدريس ما يُسمّى بالتعليم الزيتوني "الأصلي" دون دراسة معمّقة لشروط اللحظة التاريخية ومستجدّاتها، ناهيك عن إعداد البرامج والمقرّرات اللازمة باستثناء قرار قضائي. وهو ما يدعو إلى التساؤل هل كانت النخبة التونسية قبل ما يزيد عن قرن من الزمان⁸⁸ تنطق عن هوى ومتورّطة في مكيدة

⁸⁵- Kraim (Mustapha): L a classe....., P 394.

⁸⁶- الغابري: صوت الطالب...، م س، ص ص290- 315

⁸⁷- لطفي حجّي: بورقيبة والإسلام...، م س، ص 80

⁸⁸- انطلاقاً من تاريخ تأليف كتاب "أليس الصبح بقريب" سنة 1907 للشيخ ابن عاشور.

استعمارية عندما طالبت على امتداد جيلين بتعصير التعليم الزيتوني؟ هل منطلق الفعل الثوري وغايته بسماته التونسية كان إعادة إنتاج الماضي أو "الأمس الأزلي"⁸⁹ بعبارة فيبر أم تطلّعا للمستقبل عبر تدارك الحاضر بالوجود الفاعل في التاريخ؟

سنحاول الاستفادة من نتائج تحليلنا السابق وما كشفه التاريخ الشاهد في سياق التحوّلات السوسيوثقافية والجيوستراتيجية التي تشهدها تونس والمنطقة العربية منذ بداية سنة 2011.

أ- حسن قراءة التاريخ والتعلّم من الأخطاء: تُثبت مُراجعة تاريخ المؤسسة الدينية أو التربوية في العالم العربي والإسلامي خلال العصر الحديث أنّها ظلّت أسيرة لإرادة السياسية لأصحاب الخطط والمراتب السلطانية. وقد أفضت هيمنة السياسي إلى نكسات متلاحقة في مجالات كان من المنتظر أن يقتصر فيها الاحتكام إلى العامل المعرفي. يمكننا أن نذكر على سبيل الذكر فشل المسيرة الإصلاحية الزيتونية نفسها التي عدّنا أبرز أطوارها سابقاً، ثم مسيرة التعليم التونسي الذي لئن بشرّ قرار توحيد التعليم سنة 1958 بأمال عريضة وصلت إلى حدّ التطلّع للوصول إلى مستوى الدنمارك وسويسرا بعد عشر سنوات أي سنة 1968 وفق مشروع جان دوبياس، فإنّه سرعان ما تحوّل إلى مجرد محاكاة للتعليم الفرنسي ممّا أفضى إلى نتائج سلبية على مستوى متمدرسي تلك المرحلة التاريخية لا سيّما في علوم العربية وآدابها⁹⁰. لكن أصلح ذلك الخطأ بحلول ترفيحية تمّ بمقتضاها اعتماد التعريب دون إعداد أو تخطيط مسبق، وفسح المجال الثقافي الوطني للمنشورات المشرقية دون حذر من تسرّب تأثيرات التيارات الجذرية و"التمامية إلى عقول ناشئة غير مُحصّنة فكرياً"⁹¹، ثم بداية تسعينات القرن الماضي تمّ إقرار مشروع تربوي آخر اعتبر أصحابه التعريب ديماغوجيا مقترحين الرجوع إلى مشروع دوبياس. وفي الظرف الراهن يهّل البعض لعودة التعليم الزيتوني بما فيه التعليم الأكاديمي الذي لا يُشترط للتسجيل به حتّى شهادة البكالوريا، كما يتواصل إعادة فتح الفروع بعديد المدن التونسية دون ضوابط ولا مقرّرات بيداغوجية واجتماعية واقتصادية واستراتيجية متكاملة⁹² باستثناء قرار قضائي صادر عن المحكمة الإدارية يوم 2012/3/19 ووثيقة أمضى عليها ما يُسمى بشيخ الجامع الأعظم وفروعه ووزراء التربية والتعليم العالي والشؤون الدينية تنصّ على أنّ جامع الزيتونة مؤسسة دينية علمية مستقلة ممضاة يوم 12 ماي 2012 بالجامع الأعظم تزامناً مع فتح أفقاله وتسليمها لما سمّوه بالهيئة العلمية!...

⁸⁹ - ماكس فيبر: العلم والسياسة بوصفهما حرفة، ترجمة جورج كتنورة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، ص 264

⁹⁰ - الغابري: صوت الطالب...، م س، ص ص 403-415

⁹¹ - راجع أحمد خالد: كيف زرع الفكر التكفيري في ثمانينات القرن العشرين بتونس، ط1، منشورات زخارف، تونس، 2014، ص 39

⁹² - يمكن تصفّح بعض البلاغات التي تصدرها ما يُسمّى بالهيئات العلمية بعديد الفروع الزيتونية الحالية (صفاقس، بنزرت، قابس، سوسة...) المنشورة ببعض المواقع الالكترونية للتأكد من ارتجالية قرار إعادة التعليم الزيتوني. إذ لا يشترط لمزاولة سوى شهادة مدرسية وبعض الوثائق الإدارية. وفي التدريس يتم الاكتفاء ببعض المبادئ العامة مثل تدريس الفقه المالكي والمذهب الأشعري...

لم تكن جميع تلك المسارات ناجمة عن جهل أو سوء تقدير لأنّ تدارك الأخطاء والهنات من سمات التجارب الإنسانية الخلاقة والتّوّاقة إلى غد أفضل، وإنّما كانت تعبّر عن سياسات ثقافيّة وتربويّة لا همّ لواضعيها سوى الذبّ عن مصالحهم الذاتية، فالأرستقراطية الزيتونيّة التي استماتت في تعطيل الجهود الإصلاحية كانت تعلم علم اليقين أنّ التعليم الزيتوني غير قادر على تأمين مستقبل خريجه وأنّه بصدد التآكل ذاتيّاً، ولا أدلّ على ذلك من أنّها كانت ترسل أبناءها إلى المدارس العصرية ليظلّ جامع الزيتونة ملاذاً للآفاقيين⁹³. أمّا عن قرار غلق الزيتونة الذي طمس وظيفته الروحية والاجتماعية والتاريخية فقد كان في جوانب منه يهدف إلى التخلّص من مناوئة أربعة عشر ألف طالب كان من الممكن أن يشكّلوا خطراً على السلطة السياسية الوليدة عند اتباعها سياسة تحرّرية خاصّة أنّ الزعيم الحبيب بورقيبة كان يعي وعياً عميقاً بخطورة من وصفهم في إحدى رسائله بـ "ذوي العقلية الزيتونية" بعد مشاهدته لتنامي معارضة أمثالهم من ذوي التكوين الديني لساسة بلدانهم في الدول الإسلامية المستقلّة حديثاً⁹⁴. بينما كانت إصلاحات سبعينات القرن الماضي امتداداً لتلك السياسة الارتجالية، إذ لم تلتفت السلطة البورقبيّة لمسألة اللغة والهوية إلاّ بعد شعورها بالخطر المحدق بسلطتها السياسية بعد مظاهرات ماي 1968 الطلابية بفرنسا وامتدادها إلى تونس دون تفكير في العواقب القريبة والبعيدة التي ستجني الدولة التونسية نتائجها في ما بعد من خلال تنامي التيارات الإسلامويّة في العقود التالية وإلى اليوم!

لم تشدّ إصلاحات بداية تسعينات القرن الماضي عن هذا المنحى السياسي والأيديولوجي ضيق الآفاق، إذ لم تكن تهدف في حقيقتها سوى إلى خدمة نظام سياسي قائم بتلميع صورته من خلال التركيز على النتائج الكميّة للمنظومة التربوية ومحاصرة "خضم" أيديولوجي وسياسي في ما يُعتقد أنّه من العناصر المسهمة في تغذية وجوده وتأمين إمداداته. أمّا المرحلة الراهنة التي كان من المفترض أن يتم فيها تدارك أخطاء الماضي بالانكباب على صياغة معرفية لجميع الإشكاليات المطروحة خاصّة المتعلّق منها بالمسألة التربوية والدينيّة فإنّ الأحداث الشاهدة والمتسارعة تثبت عكس ذلك تماماً، إذ يتواصل التجاذب السياسي والاستقطاب الأيديولوجي على حساب حاضر بلد يئنّ تحت معضلات عدّة قد تهدّد وحدة نسيجه الاجتماعي التي كانت مضرب الأمثال منذ القديم. ذلك أنّ إعادة التعليم الزيتوني بهذه الطريقة وفي هذا الطرف بالذات لا يمكن إلاّ أن يكون عنصر إرباك للمجتمع وعمليات تغيير لوجهته عن الأهداف الحقيقيّة التي لأجلها انتفضت شرائح اجتماعيّة واسعة تطلّعا للتقدّم والحرية والكرامة. وهو ما يتجلّى اليوم في الأجواء المتوتّرة بين مؤسسات من المفروض أن تكون

⁹³ - مثلما كان صنيع الشيخ صالح المالقي الذي تولى مشيخة الجامع الأعظم، بينما كان يدرّس ابنه تعليماً عصرياً.

⁹⁴ - حجي: بورقبة والإسلام...، م س، ص ص 135-136

متجانسة⁹⁵. إضافة إلى أنه سيتسبب في فتح ملفات لا فائدة تُرجى منها للمجموعة الوطنية باستثناء بعض أصحاب المصالح الشخصية مثل الأملاك التي كانت تابعة لجامع الزيتونة قبل الاستقلال ثم ألحقت بعدة وزارات⁹⁶.

إن الحاجة اليوم إلى إعادة قراءة تاريخنا قراءة واعية ضرورية لأنها نقطة الارتكاز التي يجب الانطلاق منها لتأسيس مشروع ثقافي أساسه وغايته فكرة التقدم نفسها للقطع مع "استراتيجية البدائل" التي أسهمت في تغييب وعينا وتعميق تخلفنا وتبعيتنا.

ب- الزيتونة والإسلام التونسي: ينبغي اليوم إعادة النظر في موقع المؤسسة الزيتونية وفق رؤية تاريخية سليمة وأبعاد استراتيجية متكاملة من أجل التأسيس المعرفي لخيار حضاري متين في ظلّ العودة إلى الحديث عن العامل الديني بقوة في مجتمعاتنا المعاصرة تعبيراً عن حداثة مستلبة أو أصالة زائفة، ونجاح عديد الجهات السياسية الداخلية والخارجية في توظيف ذلك "الرأسمال الرمزي" لخدمة أهدافها الخاصة التي تتعارض مع تطلّعات تلك الشعوب المنتفضة في تحقيق التقدّم والحرية والكرامة.

قمين بنا في ظلّ ذلك السعي إلى التأسيس المعرفي أن لا نذهل عن عدّة حقائق تاريخية منها أنّ المؤسسة الزيتونية قد لعبت دور المحافظ على هوية البلاد والعنصر الموجّ للشعور الوطني إبان مرحلة الاستعمار إلى حدّ شبّه فيه القادة الوطنيين الطلبة الزيتونيين بـ "وقود المعركة" وجامع الزيتونة بـ "معقل الحزب"، بل أكثر من ذلك قدّمت تصوّراً معتدلاً للإسلام ضمن حماية المجتمع والدولة من المدّ الوهابي خلال القرن الثامن عشر، ثم التيار الإخواني طيلة النصف الأوّل من القرن العشرين. وهي مسألة هامة ينبغي تحليلها وفهمها، إذ يعيد التساؤل عن مدى الحاجة إلى مؤسسة دينية وتربوية تتّصف بالحيوية في مجتمعات يستأثر فيها الدين بنصيب غالب في وعيها ولاوعيها.

كما أنّ الزيتونة ذات التعليم التقليدي هي التي أنجبت رواداً تفتخر بهم إلى اليوم تونس في محيطها العربي والإسلامي أمثال الشابي في الأدب والحدّاد في الإصلاح الاجتماعي وعبد العزيز الثعالبي في النضال السياسي والدعوة إلى الدستور والشيخ ابن عاشور في التفسير ومقاصد الشريعة... فهل أنّ التجديد أو الإبداع لا

⁹⁵- مثل الخلاف الذي كان سائداً بين إمام جامع الزيتونة الحالي من جهة وجامعة الزيتونة ووزارة الشؤون الدينية من جهة أخرى.

⁹⁶- تطالب مشيخة الجامع الحالية بإرجاع ممتلكات الجامع من عقارات مثل بناية كلية 9أفريل ومعهد ابن شرف وجامعة الزيتونة والخلدونية... ومقرّات أخرى بجل المدن التونسية وبقسنطينة الجزائرية، وقد استعادت فعلاً بقرار قضائي مقرّ الخلدونية.

يكون إلا من رحم التقليد؟ هل أنّ خلخلة المؤسسات التقليديّة وإلغاءها دون تركيز بدائل حقيقية ذات فاعلية تحلّ محلّها مغامرة غير مأمونة العواقب⁹⁷؟

لسنا بهذه التساؤلات نخترن حنيئاً إلى التقليد أو ندعو إليه، ولكننا ننّبّه إلى ضرورة إعادة النظر في ما يبدو أنّه مسلّم به عسى أن نهتدي إلى مقاربة في إطار فكر مؤسّساتي يؤلّف بين مختلف الاجتهادات الفرديّة تأليفاً إبداعياً لا تأليفاً تليفيّاً.

ينبغي السعي في إطار تلك المقاربة إلى فهم الأسباب والعوامل التي أعاقّت المؤسسات البديلة التي ركزتها دولة الاستقلال والحكومات المتوالية إلى يومنا هذا عن تأدية الأدوار الموكولة إليها في مستوى إنتاج خطاب ديني متماسك يستوعب قيم الحداثة ويصون الهوية ويلبّي احتياجات المجتمع الروحية والمعنوية. كما يفسّر عجزها عن مجاراة النسق الذي فرضته جهات خارجية أخرى سواء منها ما كان ضمن "الإسلام المشرقي" أو "الإسلام الأوروبي". فمن المعلوم أنّه تم تأسيس بعض المؤسسات الدينية والعلمية الحديثة التي يمكن اعتبارها بشكل من الأشكال امتداداً للمؤسسة الزيتونية القديمة مثل كلية الشريعة وأصول الدين التي أصبحت منذ التسعينات تعرف بجامعة الزيتونة التي توسّعت باشمالها على معهدين واحد لأصول الدين والثاني للحضارة الإسلامية ومركز دراسات إسلامية بالقيروان، زيادة على مؤسسات أخرى ملحقة بالوزارة الأولى مثل ديوان الإفتاء والمجلس الإسلامي الأعلى... فهل كان الأمر حقاً مجرد أزمة مؤسّساتيّة ضمن جهاز مؤسّساتي أكبر هو نفسه مختل نعني "دولة التنظيمات"⁹⁸ التي لم تشهد إصلاحات جذرية بقدر ما عرفت إصلاحات شكلية تحت ضغط الصولة الأوروبية أم أنّ المسألة كلّها مرتبطة بأزمة إنسان تعوزه قدرات الفعل الخلاق أم العاملان معاً؟!!

نعتقد اليوم أنّنا بحاجة إلى مساءلة الذات قبل أيّ شيء آخر بعيداً عن منطق "جلد الذات" لأنّ عناصر التآزم متغلغلة في البنى العميقة لشخصيتنا "القاعدية". ومن هذا المنظور فإنّه لا سبيل إلى تحقيق الاستقلال الكامل فكرياً ومادياً إلا بتحرير الذات من عناصر الجذب إلى الوراء وعناصر الاغتراب.

ج- من الإصلاح الديني إلى التنوير الفلسفي: لئن كانت النصوص الدينيّة لا تفهم بمعزل عن سياقاتها المختلفة ممّا يعني أنّ طرق تمثّل المرجعيّة الدينيّة وفهمها تظلّ رهينة عوامل تاريخية وسوسيوثقافيّة فإنّ ذلك لا يجب أن يغيب حقيقة تآزم الثقافة العربية الإسلامية الذي يبرز في عدّة خصائص أبرزها "التعالّي والانفصال

⁹⁷- تحدّث رضوان السيّد في المؤتمر الثاني لمؤسسة مؤمنون بلا حدود الذي انعقد في ماي 2014 بمراكش عن مسألة التقليد وعلاقتها بحالتي التصدّع والانقسام التي تشهدها المنطقة العربيّة حالياً.

⁹⁸- عبد الله العروي: مفهوم الدولة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2008، ص 92

عن الواقع" و"الانشطار النفسي"⁹⁹. وهو ما يتسبب في تنامي ظاهرة "الجهل الجديد" الذي يجمع بين "الجهل المزدوج" وفق المصطلح الأفلاطوني وأشكال مستحدثة بفعل الثورة التكنولوجية والمعلوماتية والاتصالية وتعدّد التجريبات وتكاثرها¹⁰⁰.

وإذا كان هذا الجهل الجديد يشكّل خطرًا على جلّ المجتمعات فإنّ نوعه المقدّس أو ما يُسمّى أوليفيه روا Olivier Roy "الجهل المقدّس" يشكّل أخطرًا على الإطلاق. وهو ما يقتضي معالجة معمّقة للمسألة في العالم العربي الذي أضحى مهّدًا بمزيد من التشظّي والتقسيم. لن تتمّ تلك المعالجة المأمولة في الحالة العربيّة بإعادة بعث المؤسسات ذات المجد التليد، ولا بتقليد التطبيق الغربي للحدّثة دون مراعاة خصوصيّة المجال التداولي العربي الإسلامي، ولا بعملية مماثلات تليفية، وإنّما بعملية إصلاح ثقافي شامل نقطة ارتكازه إصلاح ديني يُعيد النظر في وظائف الدين في المجتمعات الحديثة بدل اللهث وراء إقامة مماثلات بين القيم الدينية والقيم الحديثة¹⁰¹.

لئن يذهب البعض إلى أنّ الإسلام بحاجة إلى "لوثر" عربي يمكنه المبادرة بإصلاح ديني حقيقي فإنّ هذا تصوّر لا يقلّ فقط من قيمة عديد الإسهامات الإصلاحية بالعالم الإسلامي، بل كذلك نزعتة التبسيطية باعتبار أنّه يغفل المتغيّرات التي عرفتها الحضارة المعاصرة التي ولى فيها زمن التفكير الفردي المنقذ أو "الجماعة المختارة" ليحلّ محلّه التفكير المؤسّساتي المتعدّد التيارات والاتجاهات المحتكم إلى رؤية استراتيجية واضحة على الأمدين المنظور والبعيد، زيادة على صنعه للقرار الحضاري المصيري متمنّلاً في صياغة منظومة تربوية وثقافية مستندة إلى محدّدات معرفيّة بيّنة وأهداف قوميّة وإنسانيّة واضحة.

إنّ استعادة الفعاليّة الحضارية لا يكون بالحنين إلى الماضي أو محاولة إعادة بعثه، فتلك أشكال وثوقية خاطئة بما أنّ القيمة الأساسيّة للتراث قيمة نفسيّة¹⁰² أهمّها التذكير بقدرة الذات على الخلق والإبداع، وإنّما بابتداع تصوّرات جديدة أهمّها النظر إلى الإنسان بصفته كائنًا حقّانيًا¹⁰³، والتميّز في الإسلام بين جانبي الرسالة والتاريخ¹⁰⁴، والنظر إلى التاريخ بصفته تقدّمًا مستمرًا لا نكوصًا على الأعقاب...

⁹⁹ - عبد الله العروي: الأيديولوجيا العربية المعاصرة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999، ص ص 112-115

¹⁰⁰ - توماس كوناند: الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، ط1، المؤسسة الجامعية، بيروت، 2004، ص ص 7-17

¹⁰¹ - محمد الحداد: الإسلام نزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2006، ص 157

¹⁰² - طه عبد الرحمن: الحوار أفقًا للفكر، ط1، الشبكة العربية للنشر، بيروت، 2013، ص 139

¹⁰³ - عبد الكريم سروش: التراث والعلمانية، ترجمة أحمد القبانجي، ط1، الانتشار العربي، بيروت، 2009، ص 73

¹⁰⁴ - عبد المجيد الشرفي: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2001، ص 117

بيد أنه من المحال صياغة تصوّرات جديدة تؤهّل لتشكيل مفاهيم وأنساق معرفية جديدة دون مراجعة نقدية للتراث لكي لا يشكّل عبئاً حضارياً، وإنما حافزاً على الإبداع والابتكار. وفي هذا المضمار يمكن اعتبار مسيرة المؤسسة الزيتونية طيلة ما يربو على قرن ونيف تقدّم دليلاً إضافياً على أنّ المستجدات التاريخية وحيثياتها "ناموس" يجب الامتثال له، وإنّ كلّ معاكسة لمقتضياته لن تزيد الأوضاع إلاّ بؤساً وأصحابها إلاّ تشرذماً.

لقد أثبتت التجربة التاريخية التي مرّت بها أوروبا في الانتقال من سلطة كنسية دينية يتصدّرها البابا والإكليروس إلى أنظمة ديمقراطية أنّ الحداثة السياسية ليست منفصلة عن العوامل الثقافية والاقتصادية، وإنما هي نتاج وانعكاس لها بانتشار تلك المؤثرات في شكل تجارب متعدّدة من إصلاح ديني إلى تنوير فلسفي وثورة تقنية وصناعية، فهذه السيرورة هي التي جعلت من النظام الديمقراطي حقيقة تاريخية غير قابلة للاختزال بأوروبا والغرب الحضاري عامة. لذا فإنّ العالم العربي بقدر ما هو في حاجة إلى المحافظة على خصوصيته الحضارية فهو بحاجة أيضاً إلى وسائل التمكّن المادي لتحقيق مبتغاه. وهذا المبتغى لن يتحقّق إلاّ بالشروع الفوري في إصلاح ديني معمّق يُفضي إلى تنوير فلسفي وإصلاح ثقافي شامل يخلّص المسلم الحزين منذ القرن العشرين من مختلف الإكراهات التي تكبل طاقاته وتحاصرهما.

إنّ تفعيل الوعي التاريخي لن يتمّ إلاّ بتجاوز الثنائيات الزائفة التي جعلتها التصوّرات السياسية والتجاذبات الأيديولوجية قدرًا محتمًا لا فكاك منه مثل ثنائية الإسلام والعلمانية والعقل والدين والأنا والآخر والأصالة والحداثة... بينما يُثبت تاريخ نظام تطوّر الأفكار والمجتمعات أنّ التطوّر الحقيقي لا يمكن أن يتمّ إلاّ في إطار تفاعل جدلي بين مختلف أزواج هذه الثنائيات وغيرها، ولنا في ما انتهى إليه الخطاب المابعد حدثي مع هابرماس Hebermas والخطاب الديني مع البابا السابق راتسنغر أمثلة يمكن الاستئناس بها¹⁰⁵.

¹⁰⁵ - بورغن هابرماس وجوزيف راتسنغر: جدلية العلمنة العقل والدين، تعريب حميد لشهب، ط1، جداول للنشر، بيروت، 2013، ص ص 49- 68

خاتمة:

يقتضي إصلاح المؤسسة الزيتونية ما لا يقل عن ثلاثة شروط: يُحيل أولها على وجوب الإلمام المعمق بتاريخية عملية الإصلاح نفسها التي عرفتها المؤسسة طيلة عهود مُختلفة، ويرتبط ثانيها بتجاوز محاور الإصلاح وآلياته وأهدافه الحلول الترقيعية والإسقاطات إلى تحديد الوظائف الممكنة لها في هذا المنعطف الحاسم من تاريخنا، ويقتضي ثالثها اندراج عملية إصلاحها ضمن استراتيجيا متكاملة تسعى إلى إصلاح ثقافي شامل.

المصادر والمراجع العربية:

- التوهامي (عمّار محمد): إصلاح التعليم بالجامع المعمور وخطاب شيخه المبرور الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، مطبعة الإرادة، 1945
- حجّي (لطفى): بورقيبة والإسلام الزعامة والإمامة، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004
- الحدّاد (الطاهر): التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981
- الحداد (محمد): الإسلام نزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2006
- خالد (أحمد): كيف زرع الفكر التكفيري في ثمانينات القرن العشرين بتونس، ط1، منشورات زخارف، تونس، 2014
- بن الخوجة (محمد): تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، تحقيق حمادي الساحلي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985
- الزيدي (علي): تاريخ الشعبة العصرية الزيتونية {1951-1965}، ط1، مركز البحوث في علوم المكتبات، تونس، 1986
- سروش (عبد الكريم): التراث والعلمانية، ترجمة أحمد القباجي، ط1، الانتشار العربي، بيروت، 2009
- الشرفي (عبد المجيد): الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2001
- بن أبي الضياف (أحمد): إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق أحمد الطويلي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1989
- ضيف الله (محمد): الحركة الطلابية التونسية {1927-1939}، مؤسسة التميمي للبحث العلمي، زغوان/تونس، 1999
- ضيف الله (محمد): المدرج والكرسي، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2004
- ابن عاشور (محمد الطاهر): أليس الصباح بقريب، الشركة التونسية للتوزيع، 1967
- ابن عاشور (محمد العزيز): جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سيراس للنشر، 1991
- ابن عاشور (محمد الفاضل): الحركة الأدبية والفكرية بتونس، ط1، الدر التونسية للنشر، 1983
- عبد الرحمن (طه): الحوار أفقاً للفكر، ط1، الشبكة العربية للنشر، بيروت، 2013
- عبد السلام (أحمد): المدرسة الصادقية والصادقيون، ط1، بيت الحكمة، تونس، 1994
- العروي (عبد الله): مفهوم الدولة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2008
- العروي (عبد الله): الأيديولوجيا العربية المعاصرة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1999
- العياشي (مختار): البيئة الزيتونية (1910-1945)، تعريب حمادي الساحلي، ط1، دار التركي للنشر، تونس، 1990
- الغابري (عبد الباسط): صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2011
- فيبر (ماكس): العلم والسياسة بوصفهما حرفة، ترجمة جورج كتورة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011
- كوناند (توماس): الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، ط1، المؤسسة الجامعية، بيروت، 2004
- مجموع تراتيب جامع الزيتونة وملحقاتها أدام الله عمراته، المطبعة التونسية 1327 هـ.
- المهدي (محمد الصالح): لائحة في إصلاح التعليم الزيتوني بتونس، ط1، مطبعة الاتحاد، تونس، 1929
- هابرماس (يورغن) وراتسنغر (جوزيف): جدلية العلمنة العقل والدين، تعريب حميد لشهب، ط1، جداول للنشر، بيروت، 2013
- هيقل: العقل في التاريخ محاضرات في فلسفة التاريخ، المح 1، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط2، دار التنوير، بيروت، 2007

الأطروحات والرسائل الجامعية

- سليمان (محمد): مشروع التعليم عند لويس ماشويل (1883-1906) دراسة نقدية، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمّقة، إشراف كمال عمران، كلية الآداب بمنوبة، السنة الجامعية (2003-2004).

المقالات

- التميمي (عبد الجليل): محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، 21 و22 أبريل 1981

- دون إمضاء: دستور الزيتونيين الجامع، جريدة صوت الطالب، ع 1، 1 سبتمبر 1950
- الرائد الرسمي للجمهورية التونسية بتاريخ 8 ديسمبر 1928
- الزيدي (علي): حركة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة منذ نشأتها حتى لجنة صوت الطالب الزيتوني، المجلة التاريخية المغربية، ع 35-36، ديسمبر 1984
- شقرون (الطاهر): الحركة الطلابية التونسية (1945-1956)، مجلة أطروحات، ع 5، 5 أكتوبر 1985
- ابن عاشور (محمد الفاضل): تقرير حول نظام التعليم الإسلامي بتونس والمطالبة بإصلاحه (أوت 1931)، المجلة الصادقية، ع 19
- ع.س: الكتاب المطروق، جريدة صوت الطالب الزيتوني، ع 15، 15 ديسمبر 1950
- الغابري (عبد الباسط): أبو القاسم الشابي طالبًا زيتونيًا، مجلة الحياة الثقافية، ع 237، جانفي 2013

المصادر والمراجع الأعمية:

- Abdel Moula (Mahmoud): - 1° Université Zaytounienne et la société tunisienne, Tunis, le centre national de la recherche scientifique, 1971.
- Abdessamad (Hichem): - La résidence face à la question de la réforme de l'enseignement zaytounien (1930-1931), les mouvements politiques et sociaux dans la Tunisie des années 1930 acte du 3ème séminaire sur l'histoire du mouvement national (17, 18 et 19 Mai 1985), sidi Bou Said, Tunis, publication scientifique tunisienne, 1987.
- Ayachi (Mokhtar): - La politique coloniale et la question zitounienne dans les années 1930, actes du 3ème séminaire sur l'histoire du mouvement national (27, 17et 19 mai 1985), Sidi Bou Said, publication scientifique tunisienne, 1987.
- Ayadi (Taoufik): - Mouvement réformiste et mouvement populaire à Tunis (1906- 1912), publication de l'université de Tunis, 1986.
- Khairallah (Chadly): - Le mouvement révolutionnaire tunisien (notes et documents), tome 3, Tunis, Imprimerie Marc Corrol, Juillet 1938.
- Debiesse (Jean): Projet de réforme de l'enseignement en Tunisie, rapport donné en janvier 1958; voir la Bibliothèque de I.B.L.A., cote N T 55/21.

المقالات

- Al Muchrif: - Les réformes de l'enseignement Zeitounien, R.E.I, 1930.
- A (Louis): - La jeunesse tunisienne et les études traditionnelles, I.B.L.A, 3^{ème} trimestre, 1956.
- Ghazi (Med Ferid): - Le milieu Zeitounien de 1920 à 1933, les cahiers de Tunis, N° 28, 7 année, 4 trimestre 1958.
- Kraim (Mustapha): - L'université de la Zitouna dans les années trente, revue tunisienne des sciences sociales, N° 8/91, année 1987, publication du C.E.R.E.S, université de Tunis.
- Machuel (Louis): - L'enseignement musulman en Tunisie, revue tunisienne de l'institut de Carthage, N° 16, Octobre 1897.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com